الكاتدرائيَّة المرقسيَّة بالإسكندريَّة
الأحد ١٧ نوفمبر ٢٠١٣م

عبادتُنا اللِّيتورجيَّة هي ترتيلُ عقائِدنا الإيمانيَّة

المحاضرة الرَّابعة

الرَّاهب أثناسيوس المقاري

(٥)

عقيدة الخلق في النُّصوص اللِّيتورجيَّة

تكوين ١:١، ١٦، ٢٦، ٣١ ؛ إشعياء ٤٥:١١، ١٢، ١٨ ؛ عاموس ٤:١٣ ؛ ملاخي ٢:١٠
أعمال الرُّسُل ١٧:٢٤-٢٨ ؛ أفسس ٢:١٠ كولوسي ١:١٢-١٧ ؛ رؤيا ٤:١١

القُدَّاس الباسيلي .....

- ''يا اللهُ العظيمُ الأبدي الذي جبل الإنسانَ **على غير فساد**''.
- ''الذي **خلق السَّماءَ والأرضَ والبحرَ وكلَّ ما فيها**، أبو ربِّنا وإلهنا ومخلِّصنا يسوعَ المسيح، **هذا الذي خلقتَ الكُلَّ به، ما يرى وما لا يرى**''.
- يقول الشَّماس: ''أطلبوا ... لكي المسيح إلهنا ... **يتحنَّن على جبلته التي صنعتها يداه**، ويغفر لنا خطايانا''.

القُدَّاس الغريغوري .....

- ''الذي (أي الابن) **من أجل الصَّلاح وحدَه، مِمَّا لم يكُن، كوَّنت الإنسان، وجعلته في فردوس النَّعيم**''.
- ''**خلقتني إنساناً، كمحبِّ البشر**، و لم تكن أنت محتاجاً إلى عبوديَّتي، بل أنا المحتاجُ إلى رَبوبيَّتِك. من أجل تعطُّفاتك الجزيلة **كونتني إذ لم أكن**''.
- ''أنت الذي **جبلتني** ووضعت يدك عليَّ، **وكتبتَ فيَّ صورة سُلطانك، ووضعت فيَّ موهبة النُّطْق**''.

القُدَّاس الكيرلُّسي .....

- ''**أنت الذي خلق السَّمواتِ، وما في السَّمواتِ، والأرضَ وكلَّ ما فيها، البحارَ والأنهارَ والينابيعَ والبحيراتِ وما في جميعِها. أنت الذي خلقَ الإنسانَ كصورتِك وكشبهك، وخلقت كلَّ الأشياء بحكمتك، نورِك الحقيقي، ابنِك الوحيد ربِّنا وإلهنا ومخلِّصنا وملكنا كلِّنا يسوع المسيح**''.

* * *

تتلخَّص عقيدة الخلق في المسيحيَّة في ثلاثة بنود:

(١) خلقة الكائنات من العدم
(٢) خلقة الإنسان على الخلود وعلى صورة الله ومثاله
(٣) تدعيم النِّعمة التي نالها الإنسان في خلقته، بالوصيَّة

(١) خلقة الكائنات من العدم

- خلقة الكائنات تستوجب وجود فكر سابق.
- الكون خُلق من العدم، أي خُلق مِمَّا لم يكن موجوداً من قبل.
- العدم ليس هو الأزل. أي أنَّ الكائنات لم تُخلق من مادة أزليَّة[١].
- إذاً، الخلائق لها بداية لوجودها. وهكذا يظل الفارق هائلاً بما لا يُقاس بين الخالق وخليقته.

١- للقدِّيس باسيليوس الكبير كتاب عن تفسير ستَّة أيام الخلقة المسمَّاة Hexameron وهو عبارة عن ٩ خُطَب، يشرح فيها الآيات (تكوين ١:١-٢٦). ويدحض فيه النَّظرية الفلسفيَّة الكونيَّة عن أزليَّة الكون ووجوده الذَّاتي.

– لأنَّ الخليقة خُلقت من العدم، فهي لا تملك قدرة ذاتيَّة على البقاء، إذ من الممكن أن تعود إلى العدم.
– لذلك فالخليقة بإرادة الخالق خُلقت، وبإرادة الخالق، هي كائنة أي موجودة[٢].
– الابن الخالق أنعم على خليقته إذ أعطاها قبساً من حكمته، لكي تظهر المخلوقات أنها أعمالٌ جديرة بالله.

يقول البابا أثناسيوس الرَّسولي:
[معلومٌ أنَّ الكائنات لم تُخلق من تلقاء ذاتها، **فإنَّ خلقتَها تستلزمُ وجودِ فكرٍ سابق. كما أنها لم تُخلق من مادة موجودة من قبل**، لأنَّ الله ليس ضعيفاً. **ولكن الله خلق الكون من العدم، ومن غير سبق وجوده مطلقاً، بكلمته**، كما يقول (أولاً) على لسان موسى «في البدء خلق الله السَّموات والأرض»[٣] ... وإلى هذا يشير أيضاً بولس إذ يقول «بالإيمان نفهم أنَّ العالمين أُتقنت بكلمة الله، حتى لم يتكوَّن ما يُرى ممَّا هو ظاهر»[٤]][٥].

• وتعقيباً على قول البابا أثناسيوس الرَّسولي، **[إنَّ خِلقة الكائنات تستلزم وجود فكر سابق]**
يقول الرَّب بفم إرميا النَّبي: «قبلما صوَّرتُكَ في البطن عرفتُك. وقبلما خرجتَ من الرَّحم قدستُك. جعلتُك نبيًّا للشُّعوب» (إرميا ١:٥).
ويقول القدِّيس بولس في رسالته إلى رومية: «لأنَّ الذين **سبق فعرفهم، سبق فعيَّنهم، ليكونوا مشابهين صورة ابنه**، ليكون هو بكراً بين إخوة كثيرين» (رومية ٨:٢٩).
ويقول أيضاً: «نتكلَّم بحكمة الله في سرّ، الحكمة المكتومة، التي **سبق الله فعيَّنها قبل الدُّهور لمجدنا**» (١كورنثوس ٢:٧).
والقول البديع له في رسالة أفسس: «مباركٌ الله أبو ربِّنا يسوع المسيح، الذي باركنا بكلِّ بَرَكَة روحيَّة في السَّماويَّات في المسيح يسوع، **كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم**، لنكون قدِّيسين وبلا لوم في المحبَّة، **إذ سبق فعيَّننا للتَّبني بيسوع المسيح لنفسه**، حسب مسرَّة مشيئته» (أفسس ١:٣-٥).

• يقول البابا أثناسيوس الرَّسولي، مكرراً القَول:
[**الخلائق قد أتت من العدم، إذ لها بداية لوجودها**. لأنه «في البدء خلق الله السَّموات والأرض» (تك ١ : ١) وكلَّ ما هو موجود فيها][٦].

• وعن خلقة الإنسان كأحد الكائنات، نُصلِّي في القُدَّاس الإلهي قائلين: ''من أجل **الصَّلاح وحدَه، ممَّا لم يكن**، كوَّنت الإنسان وجعلته في فردوس النَّعيم''، وفي ذلك يقول البابا أثناسيوس الرَّسولي:
[الله صالح، أو بالحري هو بالضَّرورة مصدر الصَّلاح، **والصَّالح لا يمكن أن يبخل بأيِّ شيء**. لذلك فإنه، إذ لا يضن بنعمة الوجود على أيِّ شيء، **خلق كلَّ الأشياء من العدم بكلمته – يسوع المسيح ربِّنا**][٧].

• إذاً، فالخلق هو نعمة موهوبة من الله الآب الخالق لخليقته. ولكن ما هي هذه النِّعمة؟ هذا ما يشرحه البابا أثناسيوس، بأنه اتحاد كلمة الله الأزلي بالمخلوقات، فتشترك المخلوقات في الكلمة الذي يستمد وجوده الحقيقي من الآب. فيقول:
[**السَّبب الذي لأجله اتحد الكلمة – كلمة الله – نفسه بالمخلوقات، هو عجيب حقًّا** ... لأنَّ طبيعة المخلوقات – وقد برزت إلى الوجود من العدم – زائلة وضعيفة وفانية، **إن كانت مكوَّنة من نفسها فقط**[٨] ... فإلهُ الكُل ... إذ رأى أنَّ كلَّ الطَّبيعة التي خُلقت زائلة وعُرضة للانحلال، وفق نواميسها، ولكي لا تنتهي إلى هذا

٢– «أنت مستحقٌ أيها الرَّب أن تأخذ المجد والكرامة والقُدرة، لأنك أنت خلقتَ كلَّ الأشياء، **وهي بإرادتك كائنة وخُلقت**» (رؤيا ٤:١١).
٣– تكوين ١:١
٤– عبرانيِّين ١١:٤
٥– تجسد الكلمة ١:٣، ٢
٦– رسائل القدِّيس أثناسيوس عن الرُّوح القُدُس، ١:٢٢
٧– تجسد الكلمة ٣:٣
٨– بحسب النَّص اليوناني: ''إن كانت كائنة واعتمدت على ذاتها''.

المصير، ولكي لا يتحطَّم الكَون مرَّة أُخرى ويعود إلى العدم، **لهذا خلقَ كلَّ الأشياء بكلمته الأزلي، وأعطى الخليقة وجوداً كيانياً** ... لكي تتمكَّن من أن تستقر آمنة دواماً، **لأنها تشترك مع "الكلمة" الذي يستمد الوجود الحقيقي من الآب، وتستمد منه المعونة للوجود** ... لأنه «هو صورةُ الله غير المنظور، بكرُ كلِّ خليقة. **فإنه به وفيه كلُّ الأشياء كائنة، ما يُرى وما لا يُرى، وهو رأس الكنيسة**»[٩] كما يُعلِّم خُدَّام الحق، في كتاباتهم المقدسة][١٠].

ويقول البابا أثناسيوس أيضاً:

[إنَّ كلمةَ الآب القدُّوس، الكُلِّي القُدرة، والكُلِّي الكمال، **اتَّحد بالكون** وكشف عن قوَّاته في كلِّ مكان، وأنار الكُل، ما يُرى وما لا يُرى، **وهو يمسكها كلَّها ويربطها بنفسه، دون أن يترك شيئاً خالياً من قوَّته**، بل بالعكس يُحيي كلَّ شيء، ويعضِّد كلَّ شيء في كلِّ مكان ... وبإطاعته – أي بإطاعة الله الكلمة – فإنَّ ما على الأرض يحيا، وما في السَّماء ينتظم. وبفضله تتحرَّك كلُّ البحار والمحيطات العظمى في حدودها المعيَّنة، وتعطي الأرض الجافة أعشاباً وتكتسي بكلِّ أنواع النباتات ... إنه لا يوجد شيءٌ كائنٌ يشغل حيِّزاً، إلاَّ وخُلق به، وقائمٌ به، كما يقول أيضاً اللاَّهوتي: «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله. **كلُّ شيء به كان، وبغيره لم يكن شيءٌ ممَّا كان**»[١١]][١٢].

ويقول البابا أثناسيوس الرَّسولي أيضاً:

[والآن فإنَّ ابنَ الله الوحيد وحكمتَه الذَّاتيَّة، هو خالقُ وبارئُ جميع الكائنات، لأنه يقول: «بحكمة صنعتَ كلَّ الأشياء»، «ملآنة الأرضُ بخليقتك»[١٣]. ثمَّ **لكي لا توجد المخلوقات فقط، بل يكون وجودُها صالحاً، فلهذا سُرَّ الله أن تنحدر حكمته إلى مستوى الخلائق، حتى تبث أثراً وقبساً من صورتها (أي صورة الحكمة) في جميع المخلوقات معاً، وفي كلٍّ منها على حدة، حتى تظهر المخلوقات أنها متَّصفة بالحكمة وأنها أعمالٌ جديرة بالله.**

لأنه كما أنَّ كلمتنا هي صورةُ الكلمة الذى هو ابنُ الله، هكذا أيضاً فإنَّ الحكمة الموجودة فينا، هي صورةُ حكمته هو، التي بها يكون لنا المعرفة والفهم، ونصير قابلين للحكمة الخالقة، بل وبواسطتها نستطيع أن نعرف أباها. لأنه يقول: «من له الابن له الآب أيضاً»[١٤] و «من يقبلني يقبل الذى أرسلني»[١٥] وحيث أنه قد خلق فينا بل وفي جميع أعماله مثل هذا الأثر من حكمته، فمن اللاَّئق أنَّ الحكمة الحقيقي والخالق، ينسب لنفسه ما يختص بأثره فينا، ويقول: «الرَّب خلقني لأجل أعماله»[١٦]] (ضد الأريوسيِّين ٢:٧٨)[١٧].

هذا معناه أنَّ الابن ليس مخلوقاً، وإنما هو الخالق. وإذ أنعم على الكائنات وأعطاها من حكمته عند خلقتها، جاء في ملء الزَّمان، واتَّحد بصورته التي سبق له أن طبعها في الخليقة، فقال: «الرَّب خلقني» معتبراً أن ما يخص الخليقة، يخصه هو أيضاً.

• إنَّ الكَون وكلَّ ما فيه، لا يسير وفق قوانين طبيعيَّة عمياء، ولكنَّه محكومٌ بقوَّة اللُّوغوس وحكمتِه. وكلُّ الأشياء تحيا وتنتظم به حسب طبائعها المختلفة، إذ هو فوق الكُل، وهو الضَّابط الكُل، والقوَّة المدبِّرة لكلِّ الخليقة، فإنه يفعل كلَّ هذا لمجد أبيه.

٩– كولوسي ١:١٥–١٨
١٠– الرِّسالة إلى الوثنيِّين ٤١:٢، ٣
١١– يوحنَّا ١:١–٣
١٢– الرِّسالة إلى الوثنيِّين ٤٢:١، ٢
١٣– مزمور ١٠٤:٢٤ (سبعينية).
١٤– ١يو ٢:٢٣
١٥– متى ١٠:٤٠
١٦– أمثال ٨:٢٢

17- *PG* 26, 312.21-42.

• **وبسبب الحكمة التي وضعها الله في خليقته، استطاع الإنسان أن يتعرَّف على خالقه، ويسبِّحه مع كلِّ الخليقة، على نعمته.** ومن أجل هذا ندرك الآن معنى الهوس الثَّالث الذي نُسبِّح به الرَّب في الكنيسة كلَّ يوم، حيث يقف الإنسان سيِّدُ الخليقة وسيِّدُ الكائنات كلِّها، يُقدِّم تسبيحاً للخالق، قائلاً: ''مباركٌ أنت أيها الرَّبُّ إلهُ آبائنا، ومتزايد بركة، ومتزايد علواً إلى الآباد''. ثم يُقدِّم باسم الخليقة ونيابة عنها، تسبيحاً للخالق، مناجياً الخليقةَ كلَّها، بقوله: ''باركي الرَّب ... سبِّحيه وزيديه عُلواً إلى الآباد''. وهذه الخليقة، كما يوردها الهوس الثَّالث هي: ''جميعُ أعمال الرَّب. السَّموات. جميعُ ملائكة الرَّب. جميع المياه التي فوق السَّموات. جميع قوات الرَّب. الشَّمس والقمر. سائر نجوم السَّماء. الأمطار مع الأنداء. السحب والرياح. جميع الأرواح. النَّار والحرارة. البرد والحر. الأهوية والأنداء. الليالي والأيام. النُّور والظلمة. البرد والصقيع. الجليد والثلج. البروق والسحب. الأرض كلها. الجبال وجميع الآكام. جميع ما ينبت على وجه الأرض. الينابيع. البحار والأنهار. الحيتان وجميع ما يتحرك في المياه. جميع طيور السَّماء. الوحوش وكل البهائم''، ثمَّ يُنهي الإنسان تسبيحه لله، بمخاطبة كلِّ بني البشر، وكهنة الرَّب، وعبيد الرَّب، وعابدي الرَّب، والقدِّيسين والمتواضعين، قائلاً: ''سبِّحوه وزيدوه علواً إلى الآباد''.

(٢) خلقة الإنسان على الخلود، وعلى صورة الله ومثاله

- ينفرد الإنسان في خلقته عن باقي المخلوقات، بأنه خُلق على الخلود، وخُلق على صورة الله ومثاله.
- صورة الله في الإنسان كامنة في طبيعة النَّفْس.
- صورة الله في الإنسان واضحة في العقل، والنُّطق، والحكمة، والإرادة الحرة، والخلود.
- الإنسان مخلوق على صورة الله مع إمكانيةٍ، تمكِّنه من أن يبلغ إلى مثال الله، حين يبلغ إلى كمال الفضيلة والقداسة.
- نفسُ الإنسان، لأنها خُلقت على الخلود، وعلى صورة الله، فلها القدرة على إدراك الله ومعرفته، والتأمُّل فيه.
- فإن كانت النَّفْس نقيَّة طاهرة، تستطيع أن ترى – كما في مرآة – صورة الله الآب أي كلمته.
- وإن كانت تعاليم النَّفْس غير كافية، فإنها تستطيع معرفة الله من الأشياء المنظورة.

• نقول في صلاة الصُّلح في القُدَّاس الباسيلي: ''يا الله العظيم الأبدي، الذي **جبل الإنسان على غير فساد**، والموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس، هدمته''. وهو نفس ما يقوله سفر الحكمة (٢:٢٣، ٢٤) «فإنَّ الله **خلق الإنسان خالدا، وصنعه على صورة ذاته**. لكن بحسد إبليس دخل الموت إلى العالم».

يقول البابا أثناسيوس الرَّسولي:

[الله صالح، أو بالحري هو بالضَّرورة مصدر الصَّلاح، والصَّالح لا يمكن أن يبخل بأيِّ شيء. لذلك فإنه، إذ لا يضن بنعمة الوجود على أيِّ شيء، **خلق كلَّ الأشياء من العدم بكلمته – يسوع المسيح ربِّنا**. وفضلاً عن ذلك فإنه إذ أشفق بصفة خاصة على الجنس البشري دون سائر المخلوقات على الأرض، وإذ رأى ضعفه – بطبيعة تكوينه – عن أن يبقى في حال واحدة، منحه نعمة أُخرى، **فإنه لم يكتف بمجرد خلقته للإنسان، كما خلق باقي المخلوقات غير العاقلة على الأرض، بل خلقه على صورته ومثاله، وأعطاه نصيباً حتى في قوة "كلمته"، لكي يستطيع وله نوعٌ من ظلِّ "الكلمة"، وقد خُلق عاقلاً، أن يبقى في السَّعادة أبداً، ويحيا الحياة الحقيقيَّة، حياة القدِّيسين في الفردوس**][١٨].

ويشرح البابا أثناسيوس كيف أنَّ الإنسانَ مخلوقٌ على الخلود، وكيف أنه صورةُ الله ومثاله، فيقول:

[إن كانت النَّفس ... تُحرِّك الجسد، الذي لا يتحرَّك بغيرها، فيتبع هذا أنَّ حركة النَّفْس اختياريَّة ذاتيَّة، وهذه الحركة الذَّاتية تستمر بعد دفن الجسد في التُّراب ... وإن كانت (النَّفْس) تحرِّك نفسها، ترتَّب على هذا أنها تحيا بعد الجسد ... **لأنَّ حركةَ النَّفْس هي بعينها حياتُها** ... هذا يمكن تبيانُه بأكثر وضوح – بصفة قاطعة – من فعل النَّفْس في الجسد. لأنها حتى إن كانت وهي متَّحدة بالجسد ومجتمعة به ليست محبوسة أو محدودة بحدود الجسد

١٨– تجسد الكلمة ٣:٣

الضَّيقة، بل حينما يكون الجسد مضطجعاً في الفراش عديم الحركة مستغرقاً في نوم يشبه الموت، كثيراً ما ظلَّت النَّفْس مستيقظة بفضل قوَّتها، وفاقت قوَّة الجسد الطبيعيَّة، وراحت تتخيَّل وتنظر أشياء أسمى من الأرض، **كأنها تتجوَّل خارج الجسد مع أنها باقية فيه**، وكثيراً ما اتَّصلت بالقدِّيسين والملائكة الذين هُم أسمى من دائرة الوجود الأرضي والجسدي. واقتربت منهم بفضل طهارة قوَّتها العقليَّة.

ألا يحصل بالأولى حينما تنفصل عن الجسد في الوقت المحدَّد من الله الذي جمعهما معاً أن تزداد معرفتها عن الخلود بأكثر إيضاح؟ لأنها **إن كانت وهي مجتمعة بالجسد كانت تحيا حياةً خارج الجسد، فبالأولى تستمر حياتُها بعد موت الجسد، وتحيا بلا انقضاء** بفضل الله الذي خلقها هكذا بكلمته، ربِّنا يسوع المسيح.

لأنَّ السَّبب في أنَّ النَّفْس تفكِّر وتذكر ما يتعلَّق بالخلود والأبديَّة، هو أنها هي نفسُها خالدة ... وتحيا للأبد. لأنَّ الآراء والأفكار عن الخلود لا تفارق النَّفْس أبداً، بل تلازمُها وتلبث فيها كأنها الوقود لها، ممَّا يؤكِّد خلودِها. إذاً فهذا هو السَّبب في أنَّ للنَّفْس قُدرة على رؤية الله، وهذا هو طريقُها إليه، مستمِّدة معرفتها وإدراكها عن كلمة الله، لا من الخارج بل من ذاتها ...

لأنَّ النَّفْس خُلقت على صورة الله ومثاله، كما تُبين الكُتُب الإلهيَّة حين تقول على لسان الله[١٩] «نعملُ الإنسانَ على صورتنا كشبهنا»، لذلك أيضاً فإنها حينما تتخلَّص من كلِّ أدران الخطيئة التي تُغطيها وتستبقي فقط شبه الصُّورة في طهارتها، فإنه **إذ تستنير هذه الصُّورة، استنارة كاملة، ترى النَّفْس يقيناً – كما في مرآة – صورةَ الآب، أي الكلمة، وبه تصل إلى فكرة الآب، الذي نعلم أنَّ صورتَه هي المُخلِّص**.

أمَّا إذا كانت تعاليم النَّفْس غير كافية، بسبب الأشياء الخارجيَّة التي تطمس عقلها، وتعوِّقها عن رؤية ما هو أعلى، فإنها على ذلك **تستطيع معرفة الله من الأشياء المنظورة**، طالما كانت الخليقة تُعلن بصوت عال – كما في حروف مكتوبة – ربَّها وخالقها، وذلك بنظامها وتناسقها][٢٠].

ويقول البابا أثناسيوس الرَّسولي أيضاً:

[الله جابلُ الكُل، وملكُ الكُل، الذي يعلو على كلِّ جوهر، ويعجز البشر عن اكتشافه، نظراً لعظم صلاحه، وسموِّه كلَّ السُّمو، **خلق – مخلصُنا يسوعُ المسيح بكلمته – الجنس البشري على صورته، وكوَّن الإنسان قادراً على رؤية وإدراك الحقائق، بواسطة هذه المشابهة لشخصه، مانحاً إيَّاه أيضاً أن يُدرك ويعرف حتى أزليَّته** (أي أزليَّة الله)، حتى إذا ما احتفظ بطبيعته كاملة، لا ينحرف عن فكرته عن الله قط، ولا يرتد عن شركة القدِّيسين. بل إذ نال نعمته التي وهبها له، ونال أيضاً قوَّة الله من كلمة الآب، استطاع أن يغتبط **وتكون له شركة مع اللاَّهوت** ... فإنَّ **طهارة النَّفْس كافية في حدِّ ذاتها للتَّأمُّل في الله**، كما يقول الرَّب أيضاً: «طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله»][٢١].

يقول القدِّيس كيرلُّس الكبير:

[كان الله الآب في البداءة بواسطة كلمته الخاص، قد أخذ تراباً من الأرض كما هو مكتوب، وجَبَلَ الكائن الحيّ – أعني الإنسان – **وزوَّده بنفسٍ عاقلة، بالطَّريقة التي يعلمها هو، وأناره بشركة روحه الخاص**، لأنه «نفخ في وجهه نسمة حياة»[٢٢] كما هو مكتوب] (تفسير يوحنَّا ٢٠:٢٢).

١٩– تكوين ١ : ٢٦

٢٠– الرِّسالة إلى الوثنيِّين ١:٣٣، ٣٤

٢١– الرِّسالة إلى الوثنيِّين ١:٢، ٣

٢٢– يرى القدِّيس إيريناؤس أنَّ نسمة الحياة هي النَّفس البشريَّة. فيقول في الفرق بين الحياة والموت، وبين نسمة الحياة والرُّوح المحيي: [يقول إشعياء النَّبي: «ابتَلِع الموتُ بقوةٍ» (إشعياء ٢٥: ٨ حسب التَّرجمة السَّبعينيَّة)، وهكذا زالت الحياة الأولى لأنها لم تكن قد أُعطِيت بالرُّوح القُدُس، بل بنسمة الحياة. فإنَّ نسمة الحياة التي جعلت الإنسان نفسًا حيّةً هي شيءٌ، والرُّوح المُحيي شيءٌ آخر] (ضد الهرطقات ٥: ١٢ :١-٢).
أمَّا القدِّيس كيرلُّس الكبير، فيرى أنه الرُّوح القُدُس، وذلك كما في النَّص الوارد في المتن. كما يقول أيضاً: [لا يوجد أيُّ إنسان ذو تفكير

ولكن تظل كيفيَّة وجود النَّفْس في الإنسان، بحسب ما يذكر القدِّيس كيرلُّس الكبير:
[سرٌّ مُغلق لا يعرفه إلاَّ الله].

• ويشرح القدِّيس غريغوريوس النِّيسي أنَّ المحبَّة هي أهم ما يجعلنا على صورة الله ومثاله، فيقول:
[كما أنَّ الرسامين ينقلون المعالم البشريَّة إلى اللَّوحات الفنيَّة بواسطة ألوان معيَّنة، فيضعون على الرَّسم صبغات خاصة متوافقة، تجعل جمال الأصل ينتقل بكلِّ دقة إلى الصُّورة؛ هكذا أفهم معي أنَّ **خالقنا أيضاً، قد زيَّن صورتَنا بخلع فضائله عليها، وكأنها ألوانٌ بهيَّة حتى تنال جماله الخاص، فيُظهِر فينا أصل كيانه الخاص** ... الله محبَّة وينبوعُ المحبة، لأنَّ يوحنَّا العظيم يقول: «المحبَّة هي من الله»، و«الله محبَّة» (١يوحنا ٤:٧، ٨). لذلك فالذي جَبَل طبيعتَنا، قد جعل هذه تكون أيضاً سمتُنا الأساسيَّة، إذ يقول: «بهذا يعرف الجميع أنكم تلاميذي، إن أحببتم بعضكم بعضاً» (يوحنَّا ١٣: ٣٥). لذلك **إنْ كانت هذه (أي المحبَّة) غائبة، فإنَّ طابع الصُّورة برُمَّته يكون مشوَّهاً**] (في خلقة الإنسان: ٥).

ويقول القدِّيس كيرلُّس الكبير:
[إن **كلمة الله يُنير كلَّ إنسان آتٍ إلى العالم** ليس عن طريق التَّعليم، كما يفعل الملائكة مثلاً أو النَّاس، ولكنَّه **عن طريق الخلق كإله يبثُّ في الذين يدعوهم إلى الوجود بذرة الحكمة والمعرفة الإلهية**، ويغرس فيهم أصل الفهم، وهكذا يجعل الكائن الحيَّ عاقلاً، وشريكاً لطبيعته الخاصة، إذ يشع في ذهنه إشعاعات من النُّور الأسنى **بالكيفيَّة التي يعلمها هو، وأعتقد أنَّ الكلام الكثير غير جائز في هذه الأمور** ...] (شرح إنجيل يوحنَّا ١:٩).

(٣) تدعيم النِّعمة التي نالها الإنسان في خلقته، بالوصيَّة

يقول البابا أثناسيوس الرَّسولي:
[لعلمه (أي لعلم الله) ... أنَّ إرادةَ الإنسان يمكن أن تميل إلى إحدى الجهتَين[٢٣]، **سبق فدعَّم النِّعمة المعطاة له، بالوصيَّة التي قدَّمها إليه**، والمكان الذي أقامه فيه، لأنه أتى به إلى جنَّته، وأعطاه وصيَّة، حتى إذا حفظ النِّعمة، واستمر صالحاً، استطاع الاحتفاظ بحياته في الفردوس بلا حُزن ولا ألم ولا هَم، **فضلاً عن موعد عدم الفساد في السَّماء**. أمَّا إذا تعدَّى الوصيَّة وارتد، وأصبح شريراً، فيعلم بأنه **يجلب على نفسه الفساد بالموت الذي كان يستحقَّه بالطَّبيعة**، وأنه لا يستحق الحياة في الفردوس بعد، بل يُطرد منه من ذلك الوقت، ولكي يموت ويبقى في الموت والفساد.

وهذا يحذِّر منه الكتاب المقدَّس قائلاً بفم الله: «من جميع شجر الجنَّة تأكل أكلاً. وأمَّا شجرة معرفة الخير والشَّر فلا تأكل منها. لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت»[٢٤]. وماذا يعني بقوله: «موتاً تموت». **ليس المقصود مجرَّد الموت فقط، بل أيضاً البقاء إلى الأبد في فساد الموت**][٢٥].

• ولكن ما هي الوصيَّة الجديدة التي قالها لنا الرَّب بعد أن أتى إلينا على الأرض؟ يقول: «وصيَّة جديدة أنا أعطيكم، أن تحبوا بعضكم بعضاً. كما أحببتكم أنا تحبون أنتم أيضاً بعضكم بعضاً» (يوحنَّا ١٣:٣٤). ولكن وصيَّة المحبَّة هذه ليست وصيَّة

سليم، يمكن أن يفترض أنَّ النَّسمة التي صدرت من الجوهر الإلهي، صارت نفسًا مخلوقة، بل إنه **بعد أن صار للمخلوق نفس، أو بالحري بعد أن بلغ إلى كمال طبيعته بوجود النَّفْس والجسد معًا، فإنَّ الخالق طبع عليه خَتم الرُّوح القُدُس أي ختم طبيعته الخاصة، أي نسمة الحياة**، والتي بواسطتها صار المخلوق مشكّلاً بحسب الجمال الأصلي، واكتمل "على صورة ذاك الذي خلقه"، وهكذا وُهبت له الإمكانيَّة لكلِّ شكل من أشكال السُّمو، بفضل الرُّوح الذي أُعطي له ليسكن فيه. ولكن لأنه يملك حريَّة الإرادة ليتصرَّف في أغراضه الخاصة – لأنَّ هذه الحريَّة هي إحدى عناصر الصُّورة، مثلما أنَّ الله الذي خلقه له السُّلطان على أهدافه الخاصة به، **ولكن المخلوق تحوَّل وسقط**] (شرح إنجيل يوحنَّا ١٤:٢٠). كما أنه يكرِّر نفس القَول في كتابه: ''الحوار الرَّابع عن الثَّالوث''، حيث يذكر أنَّ الرُّوح القُدُس قد فارق آدم لمَّا سقط في المعصية.
Cf. *PG* 75, 908.

٢٣– أي الخير والشَّر.
٢٤– تكوين ٢:١٦، ١٧
٢٥– تجسد الكلمة ٣:٤، ٥

جديدة[٢٦]. ولكن الجديد فيها الآن هو في قول الرَّب: ''كما أحببتكم أنا!!''.

٢٦- انظر: ٢يوحنا ١:٥٢

(٦)

قضيَّة سقوط الإنسان في النُّصوص اللِّيتورجيَّة

تكوين **٢**:١٥-١٧ ، **٣**:١-١٣، ٢٢-٢٤
رومية **٣**:٢٠-٢٦ ، **٦**:١٤، ١٥ ، **١٤**:٤ ؛ أفسس **٢**:١-٨ ؛ ١تيموثاوس **٦**:٩ ؛ ٢بطرس **٣**:١٧، ١٨

القُدَّاس الباسيلي .....
- ''**الموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس**''.

القُدَّاس الغريغوري .....
- ''وعندما **سقط** (الإنسان) **بغواية العدو ومخالفة وصيَّتك المقدَّسة**''.
- ''غرسٌ واحدٌ نهيتني أن آكلَ منه، هذا الذي قلتَ لي لا تأكل منه وحده، **فأكلتُ بإرادتي، وتركتُ عني ناموسك برأيي، وتكاسلتُ عن وصاياك. أنا اختطفتُ ليَّ قضيَّةَ الموت**''.

القُدَّاس الكيرلُّسي .....
- ''لا تطرحنا نحن عبيدك **من أجل دنس خطايانا**، لأنك أنت العارف كخالق جبلتَنا، أنه ليس مولودُ امرأة يتزكَّى أمامك''.

* * *

النُّصوص الآبائيَّة الآتية، تشرح لنا أسباب السُّقوط، ومراحله، ونتائجه، ويمكن تلخيصها كما يلي:

- **أسباب السُّقوط:**

- الغواية بأسباب تُشبه الحق، وليست هي الحق.
- رفض الإنسان التَّأمُّل في الله والأمور الأبديَّة، والبحث والتَّفكير في أمور الجسد وحواسه.
- التَّهاون في حفظ الوصيَّة، ثمَّ العصيان ومخالفة الوصيَّة.
- فقدان النِّعمة المجانيَّة الموهوبة للبشر في يوم خلقتهم، وهي الحياة المنسجمة مع الله.
- سقوط البشر في شهوات النَّفس والملذَّات الجسديَّة، بعد أن رفضوا أن يبقوا الله في معرفتهم.
- النَّسيَان النِّهائي للقوَّة التي نالها الإنسان أصلاً من الله.
- جموع النَّفْس وشرودها في التَّحرُّك نحو ما هو ضدَّ التَّأمُّل في الخير، حتى أساءت النَّفْس استعمال قواها.

- **مراحل السُّقوط:**

- التَّردي في شهوات الجسد.
- الخجل من العُري، ليس عُري الثِّياب فحسب، بل عُري التَّأمُّل في الأمور الإلهيَّة.
- الرَّغبة الجامحة في معرفة كلِّ شيء بلا استثناء أو تحفُّظ، حتى أصبحت الملذَّات هي خُلاصة الخير.
- اختراع أنواع من الشَّر، والتفنُّن فيه.

- **نتائج السُّقوط:**

- خضوع النَّفس للجبن والخوف والملذَّات والتَّفكير في الفناء.
- الخوف من الموت، أي انفصال النَّفس عن الجسد.

- ارتكاب القتل والمظالم، ونشأة الحروب والمنازعات.
- لم يبق البشر في الصُّورة التي خلقوا عليها، بل فسدوا حسبما أرادوا لأنفسهم.
- أصبحت طبيعة البشر مشبَّعة بالخطيئة.
- سيادة الموت على البشر كملك.
- استحقاق حُكم الموت، بسبب تعدي الوصيَّة.
- العودة إلى عدم الوجود بالفساد الذي يؤدي إلى العدم مع توالي الزَّمن.
- صار للفساد سُلطان نهائي على كلِّ جنس البشر. «أنت تُراب وإلى التُّراب تعود».

يشرح البابا أثناسيوس الرَّسولي كيف أنَّ سقوط الإنسان بدأ بانحراف فكره، فيقول:

[... صوَّر الخالق جنس البشر ... وهكذا قصد به أن يستمر. ولكن النَّاس إذ استخفوا بالأمور الأفضل، ورفضوا إدراكها، بدأوا يبحثون عن الأمور الأقرب إليهم، التي فضَّلوها على تلك.

على أنَّ الأمورَ الأقرب إليهم هي الجسدُ وحواسُه. وهكذا إذ **أبعدوا عقلَهم عن الأشياء المدرَكة بالتَّفكير، بدأوا يفكِّرون في أنفسهم**، وبهذا، وبحصر الفكر في الجسد وسائر الأمور الأُخرى الحسيَّة، وإذ انخدعوا بما حولهم، سقطوا في شهوات أنفسهم، **مفضِّلين ما هو لذواتهم عن التَّأمل فيما هو لله**. وإذ انغمسوا في هذه رافضين ترك الأمور القريبة إليهم، أوقعوا نفوسهم في حبائل الملذَّات الجسديَّة فاضطربت (نفوسهم)، وارتبكت بكلِّ أنواع الشَّهوات، **بينما نسوا كُليَّة، القوَّة التي نالوها أصلاً من الله**.

على أنَّ صحَّة هذا، تتبيَّن في الإنسان الذي خُلق أوَّلاً (أي آدم) كما تُخبرنا الكُتُب المقدَّسة عنه. لأنه هو أيضا طالما كان عقلُه مركَّزاً في الله ومداوماً على التَّأمُّل في الله، كان متحوِّلاً عن التَّأمل في الجسد. **ولكنَّه عندما ابتعد عن التَّفكير في الله بمشورة الحيَّة، وبدأ يتأمَّل في نفسه، فإنهما لم يتردَّيا إلى شهوات الجسد فحسب، بل عرفا أنهما عريانان، وإذ عرفا هذا خجلا. على أنهما لم يعرفا أنهما عريانان من اللِّباس بقدر ما عرفا أنهما تجرَّدا من التَّأمُّل في الأمور الإلهيَّة، وحوَّلا ذهنهما إلى الضِّد. لأنهما إذ ابتعدا عن التَّأمُّل في الواحد الحق أي الله، وعن الرَّغبة فيه**، فانهما منذ تلك اللحظة انشغلا بشهوات مختلفة، وشهوات الحواس الجسدانيَّة المتعدِّدة.

ونتج من هذا بطبيعة الحال أنهما إذ **تولَّدت فيهما الرَّغبة لكلِّ شيء بلا استثناء، بدآ يألفان هذه الرَّغبات**، لدرجة أنهما كانا يخشيان أن يتركاها. لهذا **بدأت النَّفْس تخضع للجُبن والخوف والملذَّات والتَّفكير في الفناء**. لأنها إذ لم تشأ أن تترك شهواتها، **صارت تخشى الموت وانفصالها عن الجسد**. وأيضا إذ بدأت تشتهي، ووجدت أنها عاجزة عن إتمام شهواتها، تعلَّمت **ارتكاب القتل والمظالم**. وهذا يدفعنا بطبيعة الحال لكي نوضِّح على قدر الاستطاعة، كيف تفعل هذا.

وإذ ابتعدت عن التَّأمُّل في الأمور العقليَّة، واستخدمت لأقصى حدٍّ كلَّ نواحي نشاط الجسد، وتلذَّذت بالتَّأمُّل في الجسد، ورأت أنَّ الملذَّات جيِّدة لها، فإنها ضلَّت وأساءت استعمال اسم الخير، **وظنَّت أن الملذَّات هي خُلاصة الخير**، كما لو أصيب إنسان بآفة في عقله، وطلب سيفاً ليُشهره ضدَّ كلِّ من لقيَه، وظنَّ أنَّ هذا هو العقلَ السَّليم.

ولكنَّها (أي النَّفْس) إذ تردَّت في محبَّة الملذَّات، بدأت تُخرجها في أشكال مختلفة. **لأنها إذ هي بالطَّبيعة متحرِّكة، فإنها لا تفقد حركتها، حتى ولو ابتعدت عن الخير**. إذاً فهي تتحرَّك لا نحو الفضيلة فيما بعد، ولا لكي ترى الله، بل تستخدم قُواها استخداماً غريباً، مفكِّرةً فيما لا وجودَ له، ومسيئةً استخدام تلك القوى كوسيلة للملذات التي اخترعتها، طالما كان لها السُّلطان على ذاتها.

لأنه كما كان في استطاعتها من النَّاحية الواحدة أن تنعطف نحو الخير، كذلك كان في استطاعتها من النَّاحية الأُخرى أن ترفضه. ولكنَّها برفضها الخير، انشغل تفكيرُها بطبيعة الحال فيما هو ضدّه، لأنها لم تستطع مطلقاً أن

تمتنع عن الحركة، فهي كما قُلت متحرِّكة بالطَّبيعة. وإذ كانت تعرف سُلطانها على ذاتها، فإنها كانت ترى بأنها تستطيع استخدام أعضاء جسدها في أحد الاتجاهين، إمَّا إلى ناحية الموجود، أو إلى ناحية العَدَم.

على أنَّ الخير هو الموجود، والشَّر هو العَدَم. إذاً فإنني أقصدُ بالموجود ما هو خير، لأنَّ له مماثلة في الله الموجود. وأقصد بالعَدَم ما هو شر، لأنه ينحصر في الأوهام الباطلة في أفكار البشر. لأنه مع أنَّ للجسد عينَين لرؤية الخليقة، ولأدراك الخالق بتركيبها المتوافق كلَّ الموافقة، وأذنَين للإصغاء إلى الأقوال الإلهيَّة ونواميس الله، ويدَين لإتمام الأعمال الضروريَّة، ولرفعها إلى الله في الصَّلاة، إلاَّ أنَّ النَّفْس وقد ابتعدت عن التَّأمُّل في الخير، والتَّحرُّك في دائرته، صارت تهيم شاردةً، وتتحرَّك نحو ما هو ضدَّه.

وهي – كما قدمتُ – **إذ ارتضت، أو أساءت استعمال قواها، أدركت أنَّ في استطاعتها تحريك أعضاء الجسد أيضا في اتجاه مضاد.** ولذلك فعوضاً عن النَّظَر إلى الخليقة، صارت تحوِّلُ العين إلى الشَّهوات، مُظهرةً أنَّ لها هذا السُّلطان أيضا، ومتوهِّمةً أنها بمجرَّد التَّحرُّك، تحتفظ بكرامتها ولا ترتكب أيَّة خطيئة إذا تصرَّفت كما تُريد وتشتهي. **غيرُ عالمة أنها لم تُخلق لمجرَّد التَّحرُّك بل للتَّحرُّك في الاتجاه المستقيم.** وهذا هو الذي من أجله يؤكِّد لنا أحد الأقوال الرَّسوليَّة، أنَّ «كلَّ الأشياء تحلُّ لي، لكن ليس كلُّ الأشياء توافق»[١][٢].

ويقول البابا أثناسيوس الرَّسولي أيضاً:

[الله خلق الإنسان، وقصد أن يبقى في عدم فساد، أمَّا البشر، **فإذ احتقروا ورفضوا التَّأمُّل في الله، واخترعوا ودبَّروا الشَّر لأنفسهم ... فقد استحقّوا حُكم الموت الذي سبق تهديدهم به. ومن ذلك الحين، لم يبقوا بعد في الصُّورة التي خُلقوا عليها، بل فسدوا حسبما أرادوا لأنفسهم**[٣]، **وساد عليهم الموت كملك**[٤]. لأنَّ تعدِّيهم الوصيَّة، أعادهم إلى حالتهم الطَّبيعيَّة، حتى أنهم كما نشأوا من العَدَم، كذلك يجب ألاَّ يتوقَّعوا إلاَّ الفساد الذي يؤدِّي إلى العَدَم مع توالي الزَّمن] (تجسُّد الكلمة ٤:٤).

[لأنَّ الإنسان **إذ خُلق من العَدَم فإنه فانٍ بطبيعته**، على أنه بفضل خلقته على صورة الله الكائن، كان ممكناً أن ينجو من الفساد الطَّبيعي، **ويبقى في عدم فساد**، لو أنه احتفظ بتلك الصُّورة **بإبقاء الله في معرفته** ... ولكنَّه إذ كان في عدم فساد، كان ممكناً أن يعيش كالله منذ ذلك الوقت، وإلى هذا يشير الكتاب المقدَّس على الأرجح عندما يقول: «أنا قلتُ إنكم آلهة، وبنو العلي كلُّكم. لكن مثلَ النَّاس تموتون، وكأحد الرؤساء تسقطون»[٥]] (تجسُّد الكلمة ٦:٤).

[لأنَّ الله لم يكتف بأن **يخلقنا من العَدَم**، ولكنَّه أيضاً وهبنا مجاناً، بنعمة الكلمة، **حياة منسجمة مع الله**. ولكن البشر إذ رفضوا الأمورَ الأبديَّة، وتحوَّلوا إلى الأمور الفاسدة بمشورة الشيطان، صاروا سبباً لفساد أنفسهم بالموت، لأنهم – كما ذكرتُ سابقاً – بالطَّبيعة فاسدون، **لكنَّهم تعيَّنوا للخلاص من حالتهم الطَّبيعيَّة (الفاسدة هذه) بنعمة اشتراكهم في "الكلمة" – إن استمرّوا صالحين.**

ولأنَّ "الكلمة" حلَّ معهم، فحتى فسادُهم الطَّبيعي لم يجسُر أن يقترب منهم، كما تقول الحكمة أيضا: «لأنَّ الله خلق الإنسان في عدم البلى[٦] وصنعه على صورة أزليَّته، لكن الموت دخل إلى العالم[٧] بسبب إبليس». وعندما تمَّ ذلك[٨]، **بدأ البشر يموتون، وساد عليهم الفساد**[٩] **من ذلك الوقت فصاعداً**، وصار له (أي الفساد) سُلطان

١– ١كورنثوس ١٠ : ٢٣
٢– الرِّسالة إلى الوثنيِّين ٣:١، ٤
٣– جامعة ٧ : ٢٩، رومية ١ : ٢١ و ٢٢
٤– رومية ٥ : ١٤
٥– مزمور ٨٢:٦
٦– أو "خالداً" حسب ترجمة اليسوعيِّين.
٧– حكمة ٢:٢٣، ٢٤
٨– أي بعد أن أغوى الشيطان الإنسان فسقط.

على كلِّ الجنس البشري، **أكثر من سُلطانه الطَّبيعي**، لأنه أتى نتيجة تهديد الله في حال عصيان الوصيَّة.

لأنَّ البشر لم يقفوا عند حدٍّ معيَّن حتى في سوء أفعالهم، بل تدرَّجوا في الشَّر حتى تخطوا كلَّ حدود، وأصبحوا يخترعون الشَّر ويتفنَّنون فيه، إلى أن **جلبوا على أنفسهم الموت والفساد**. وبعد ذلك إذ توغَّلوا في الرَّذيلة، و لم يقفوا عند شرٍّ واحد، بل راحوا يخترعون كلَّ جديد من الشَّر، **فقد أصبحت طبيعتهم مشبَّعة بالخطيئة**] (تجسُّد الكلمة ١:٥- ٣).

[إذاً فمن أجل هذا ساد الموت على البشر، وعمَّهم الفساد، وكان الجنس البشري سائراً نحو الهلاك، وكان الإنسان العاقل الذي خُلق على صورة الله آخذاً في الاختفاء، وكانت صَنعة الله آخذة في الانحلال ...

كان أمراً مرعباً لو أنَّ الله بعد ما تكلَّم يصير كاذباً، إن كان بعد أن أصدر حُكمه على الإنسان بأن يموت موتاً إن تعدَّى الوصيَّة، لا يموت، بل تبطُل كلمةُ الله. ولو كان الإنسان لم يمُت بعد أن قال الله إننا نموت، لأصبح اللهُ غيرَ صادق.

وكان أيضاً أمراً غيرَ لائق، أنَّ الخليقة التي خُلقت عاقلة، والتي شاركت "الكلمة"، يصبح مصيرها الهلاك، وترجع إلى عدم الوجود بالفساد ...

لأنه لو لم يكن قد خلق جنس البشر، لما تجاسر إنسان أن ينسب إليه الضَّعف. أمَّا وقد خلقه، وخلقه من العَدَم، فقد كان يُعدُّ أمراً مُشيناً جداً أن يفنى المخلوق على مرأى من الخالق. لهذا **أصبح أمراً محتَّماً ألا يُترك الإنسان لتيار الفساد**، لأنَّ ذلك يُعتبرُ عملاً غيرَ لائق، ولا يتَّفق مع صلاح الله](تجسُّد الكلمة ١:٦، ٣، ٤، ٩، ١٠).

ويشرح القدِّيس كيرلُّس الكبير، أنَّ السُّقوط كان بسبب التَّهاون في حفظ الوصيَّة. فيقول:

[لقد سبق أن **مُنح الرُّوح في القديم لآدم باكورة جنسنا**، ولكن هذا **صار متهاوناً من جهة حفظ الوصيَّة** المعطاة له، **واستهتر بما أُمر به، فسقط في الخطيئة**، وبالتَّالي لم يجد الرُّوح راحة ἀνάπαυσιν بين النَّاس، «لأنَّ الجميع زاغوا وفسدوا معاً، ليس مَنْ يعمل صلاحاً، ليس ولا واحد» (رومية ١٢:٣). ثم إنَّ الكلمة ابنَ الله الوحيد، صار إنساناً، ولكن دون أن يتحوَّل عن كونه إلهاً. **فلمَّا صار مثلَنا وهو غيرُ قابل لأن ينساق نحو الخطايا، حينئذ ارتاح الرُّوح القُدُس في طبيعة الإنسان**، فيه هو أولاً بصفته **الباكورة الثَّانية لجنسنا**، حتى يرتاح فينا أيضاً، ويثبُت في نفوس المؤمنين، محباً للسُّكنى فيها] (شرح إشعياء ١:١١).

ويشرح القدِّيس إيريناؤس (١٣٠-٢٠٠م) أنَّ مخالفة الوصيَّة بدأت من البطن. فيقول:

[في البدء أغوى الشيطان الإنسان بالطَّعام مع أنه لم يكن جائعاً، **وجعله يخالف وصيَّة الله**. وأمَّا في هذه المرَّة الأخيرة، فلم يستطع أن يُغوي (المسيح) الجائع من أن ينتظر الطَّعام الذي من عند الله ... وهكذا فإن شَرَه الإنسان في الجنَّة بالأكل المضاعَف قد أُبطِلَ بواسطة الامتناع (عن الأكل) الذي (احتمله المسيح) في هذا العالم ... وكذلك **العصيان الذي ارتكبه آدم ضد وصيَّة الله قد أُبطِلَ لمَّا حفظ ابن الإنسان وصيَّة النَّاموسِ، ولم يخالف وصيَّة الله**][١٠].

ويؤكد القدِّيس يوحنَّا ذهبي الفم على القَول السَّابق فيقول:

[آدم بسبب عدم انضباط بطنه، قد أُخرج من الفردوس. وهذه الرَّذيلة أيضاً هي التي تسبَّبت في الفيضان أيام نوح، وأيضاً في نزول نار من السَّماء على سدوم. فمع أنَّ أهل سدوم كانوا مُدانين بالزِّنا، **إلاَّ أن أصل كلِّ العقوبات ينشأ من هنا** (أي من التعبُّد للبطن)، الأمر الذي نوَّه عنه حزقيال قائلاً: «هذا هو إثم سدوم، أنهم بالكبرياء وبالشِّبع من الخُبز، وبالملذَّات، قد تنعَّموا» (حزقيال ١٦: ٤٩ حسب السَّبعينيَّة). وهكذا اليهود أيضاً اقترفوا

٩- واضحٌ من الكلام هنا، أنَّ المقصود بالفساد هو موت أو انحلال الجسد، وهلاك النَّفس، أي طرحها بعيداً عن الله.
١٠- ضد الهرطقات ١:٢١:٥، ٢

أعظم الشُّرور وانجرفوا للإثم بسبب السُّكْر والتَّلذُّذ بالأطعمة (خروج ٣٢: ٦). فلهذا السَّبب بالذَّات، قد صام الرَّبُّ أربعين يوماً، مُظهراً لنا أدوية الخلاص] (عظة ١٣ في تفسير متى ٤: ٢).

ويقول الأنبا أنطونيوس:

[يا أحبائي ... تحفَّظوا من مشورات الشيطان الرَّديئة. لأنه يأتي بصورة من يقول الحق، ليخدع ويَطغَى على من يقبله ... **لأنه يصطاد المؤمنين بأساليب تبدو حسنة، وهي ليست كذلك**. والذين لم يدركوا الكمال بعد، لا يعرفون حِيَل الشيطان هذه، ولا ما يُلقيه فيهم كلَّ وقت. أمَّا الكاملون الذين درَّبوا حواسَّهم، وعرفوا تمييزَ الخير من الشَّر (عبرانيِّين ٥:١٤)، فهؤلاء لا يقدر العدو أن يُطغيَهم. أمَّا المؤمنون الذين لم يكمُلوا (بعد)، فإذا لم يحترسوا لذواتهم، **فإنه يخدعهم بطعامه الطيِّب في مظهره، وهو ليس بطيِّب**، ويجتذبهم كما يجتذب الصيَّاد السَّمكة بعدما يُغطِّي رأسَ الصِنَّارة بالطُعْم. فالسَّمك لكونه لا يَعلَم بالصنَّارة المستورة بالطُعم، يتقدَّم ويبلع الطُعم، فيُؤخذ عاجلاً وبسهولة. فافهموا هذا، أنَّ السَّمك لو علم أنه يُؤخذ بذلك الطُعم، فإنه كان ينفر منه ولا يقربه أصلاً. هكذا، كما قُلنا عن المؤمنين غير الكاملين، **فالعدو يصيدهم بالأسباب التي تُشبه الحق**، كما يقول سليمان الحكيم: إنه «قد يوجد طريقٌ يُظنُّ بها أنها مستقيمة، وآخرتُها تؤدى إلى أسافل الجحيم» (أمثال ١٦:٢٥).

ومكتوب أيضا في عاموس النَّبي: «يا عاموس، ماذا تصنع هنا؟ فقال: إني أرى شبكةً لصيد الطَّير» (عاموس ٨:٢). ومعلوم أنَّ الطَّير، لفزعه من أن يُؤخذ في الأرض، فهو يتعالى في الجو ويصنع له مكاناً لراحته ورُقاده. فإذا رقد، يكون بلا همٍّ، كونُه لا يصل إليه أحدٌ فيمسكه. لكنَّنا نرى الصيَّاد يتحايل، ويأتي تحت مكانه، وينصب له شبكته، **ويخدعه بالطُعم**، وبذلك ينزل به من ذلك العلو ويقتنصَه. والشيطان يفعل هكذا، ويصيد المؤمنين غير الكاملين **بحيَله التي هي شبيهة بالحق وهي ليست كذلك، ويُنزلهم من علوِّهم**.

لأنه هكذا فعل (الشيطان) لَّما اختفى في الحيَّة، وقال لحواء: «إنكما إذا أكلتما من الشَّجرة تصيران آلهة، وتنفتح أعينكما» (تكوين ٣:٥). فلمَّا سمعت حواء هذا الكلام، مال قلبُها إليه، وظنَّت أنه حق، لأنها لم تفحصه. فلمَّا أكلتْ وأطعمتْ آدم، أصابهما الذُّلُّ العظيم، وسقطا كلاهما من علوِّهما.

هكذا يفعل الشيطان بالمؤمنين الذين لم يُدركوا الكمال بعد، عندما لا يفرِّقون بين الخير والشَّر، **بل يتبعون أهويتهم ويقنعون برأيهم**، ولا يرجعون ليتعلَّموا من آبائهم الذين قد كمُلوا، وميَّزوا بين الخير والشَّر، ويظنُّون أنهم قد صاروا كاملين ومبارَكين وحدَهم مثل آبائهم. فهؤلاء، يا أولادي الأحباء، يشبهون تلك الطُّيور التي صنعت أوكارها في الجو وهبطت إلى الأرض، فاقتنصها الصيَّادون بالحيل المخادعة. **وهذا يكونُ لهؤلاء، بسبب اتكالهم على ذواتهم، وعملهم مشيئاتهم، وتكميل إرادتهم، وعدم طاعتهم لآبائهم** ... لأنَّ التَّعلُّم من الآباء صار صعباً عليهم، لظنِّهم أنهم قد عرفوا كلَّ الأشياء] (الرِّسالة ١٨:٥، ٦).

وينقل لنا القدِّيس أنبا أنطونيوس وصيَّة غالية، تُكمِّل قوله السَّابق مباشرة، فيقول:

[موسى أوصى شعبه في البريَّة أن لا ينسوا خطاياهم الأولى، بقوله لهم: «إذا ما دخلتم الأرض التي ترثونها، فاحترسوا إذا استغنيتم، من أن تأكلوا وتشربوا وتبطروا؛ لكن اذكروا العبوديَّة التي كانت لكم في مصر[١١]، وما أغضبتم الرَّبَّ به أيضا في البريَّة (تثنية ٩:٧)؛ ويكون هذا التَّذكار لكم، طولَ أيام حياتكم (تثنية ٤:٩).

وهذا تعليمٌ لنا، يا أولادي الأحباء، إذا ما صرنا عبيداً زماناً بمصر، التي هي الخطيئة التي استُعبدنا لها بإرادتنا. فلنجاهد، إذاً، أن ندخل أرض الميعاد. وإذا دخلنا، فلا ننسى عبوديَّتنا، بل نذكرها دائماً، لئلا نأكل ونشبع ونبطر. وليس موسى وحده هو الذى يعلِّمنا ذلك، بل وسائر الأنبياء أيضاً هكذا يعلِّموننا أنْ لا ننسى خطايانا التي غفرها

١١- قارن تثنية ٨:١١-١٤

الله لنا ونسيها هو. بل نكون نحن ذاكرين لها كلَّ حين، لكى ما نكون على الدَّوام متَّضعين أمام الرَّب، مثلَ قـــوم ماثلين أمام من له عليهم دَين] (الرِّسالة ١٦:٩).